في الأدب الجزائري العربي الحديث

د. محمد لطفي الزليطني

يمثل الأدب الجزائري صفحة هامة من الأدب العربي لا يمكن التغاضي عنها ، وجزءاً منه يحمل من المقومات والخصائص المميزة مايجعله أدباً جديراً بالدرس والتمحيص . ونقصد بالأدب الجزائري هنا خاصة الأدب الجزائري الذي اتخذ من اللغة العربية أداة له ، وهو أدب وإن لم يصل إلى المستوى الأعلى من الجودة والكمال إلا أنه ذو أهمية بالغة إذ يقدم للباحث مادة غنية ، متنوعة ، دسمة ظلت مع ذلك وللأسف الشديد متروكة لم يلتفت إليها إلا القليل من الباحثين . ومهما تكن مسؤولية التاريخ والعوائق التي وضعها وحال بها دون إلقاء الضوء على هذا الأدب الجزائري العربي ، فإن مسؤولية الباحثين تظل هي الأخرى مع ذلك كبيرة في إهمال هذا الجانب من الأدب العربي وبقائه غامضاً مهضوم الحق في عيني القارىء العربي . ولعل ذلك الأمر نفسه هو الذي أدّى بكثير من الباحثين العرب إلى أن يصدروا في مواقفهم من الأدب الجزائري باللغة العربية عن آراء تكشف بحق عن مدى سطحية اطلاعهم على هذا الأدب . وهي سطحية تؤدي بهم إلى اتخاذ مواقف فيها كثير من التعسف وغير قليل من الإجحاف والتسرع في القاء الأحكام .

ذلك في نظري ماصدر عنه رأي الدكتورة «سعاد محمد خضر» في موقفها من الأدب الجزائري العربي ، الذي أبانت عنه في كتابها حول «الأدب الجزائري المعاصر»[1]. وهي في

موقفها هذا صدى لكل الآراء التي شاعت حول «الأدب الجزائري» ــ العربي منه بالخصوص ــ ومشكلة التعريب التي أجبرته ظروف تاريخية موضوعية معينة على أن يخوضها ، والصراع القائم لديه بين لغة عربية قومية أصيلة ولغة فرنسية دخيلة ، حاول الاستعمار الفرنسي تأصيلها لدى الجزائريين بكل الوسائل ، ونجح في ذلك إلى حد ما .

والدكتورة سعاد محمد خضر تدرك حق الإدراك هذه الظروف الموضوعية التي أدت إلى قيام مشكلة التعبير في الأدب الجزائري الحديث ، فهي في فصل من كتابها المذكور بعنوان «مشكلة التعبير في الأدب الجزائري الحديث» تقوم بعرض دقيق شيق لخصائص العملية الأدبية في المستعمرات ، قبل وبعد الاستقلال ، وعوامل تطورها ونموها بتطور المجتمع ونمو ثقافته وبتأثير من الموقع الجغرافي لهذه المستعمرة أو تلك ، وسياسة المستعمر فيها . وهي تقصد بهذا العرض والتحليل إلى التدليل على أن العملية الأدبية في الجزائر تجربة فريدة في تاريخ الآداب القومية المعاصرة ، وأنها غنية بالتجارب ، زاخرة بما تقدمه لنا من خصائص وصفات مميزة ذاتية ، تكشف لنا بحق عن «مدى تطور العلاقات الاجتماعية والتاريخية التي كانت تعيشها الجزائر منذ أجيال و قبل الاحتلال»[٢] و تبين للباحث المدقق «ما يمكن أن يسير إليه التطور الاجتماعي إذا ما ساعدت الظروف الموضوعية التي تعيشها الجزائر المستقلة على مسيرة ذلك التطور» .[٣] والجدير بالملاحظة أن الدكتورة سعاد خضر تقصد بالعملية الأدبية في الجزائر الأدب الجزائري الذي اتخذ من اللغة الفرنسية ، لغة العدو المستعمر ، أداة له في التعبير . وهي خلال كل هذا الفصل تركز بحثها وتحليلها على هذا الأدب المكتوب بالفرنسية بالذات ، وتبحث في ظروف نشأة هذا الأدب ، فترى أن «الظروف الخاصة التي فرضتها فرنسا بمحاربتها اللغة العربية ، وبفرضها تلك اللغة الفرنسية ، والثقافة الفرنسية ، قد دفعت بالجزائريين لدراسة تلك اللغة والاغتراف من مناهل تلك الثقافة ، مما ساعدهم على إغناء تقاليدهم وتراثهم وخلق أدب إنساني يقف في مصاف الآداب العالمية»[٤] ، ألا وهو الأدب الجزائري الحديث المكتوب بالفرنسية . وواضح من نظرتها هذه ما تحمله إلى هذا الأدب من تقدير واحترام وإعجاب . وهو شعور نقاسمها إياه بلا شك . فبلوغ أدباء الجزائر الذين يكتبون بالفرنسية هذه المرتبة التي تجعلهم في مستوى كبار الكتاب العالميين ، ومواكبة انتاجهم لأبرز الأعمال الأدبية العالمية ، كل ذلك يعد مفخرة لا للجزائريين والأدب الجزائري فحسب ، بل للعالم العربي كله والأدب

العربي بأكمله . ولكم نتمنى لو يتعدد مثل هؤلاء فيخرج أدبنا إلى مجال الأدب العالمي والإنساني ويساهم بذلك في الرفع من شأن العرب والأدب العربي على حد سواء .

إلا أننا نجد الدكتورة سعاد خضر تنظر إلى الأدب الجزائري الحديث على أنه مقتصر على الفرنسية فقط ، وأن الحركة الأدبية في الجزائر قائمة فحسب على ما يقوم به الكتاب الجزائريون بالفرنسية من تأليف ونظم في القصة والشعر وغيرهما من الفنون الأدبية . وهي ، وإن ذكرت أن هناك أدباً جزائرياً كتب بالعربية إلى جانب الذى كتب بالفرنسية و البربرية ، إلا أنها مرت عليه دون أن تعيره ما يستحق من الرعاية و البحث و التمحيص . بل إنها تدلي في شأنه بأحكام فيها كثير من التعسف . فهي ترميه أحياناً بالمحافظة الشديدة والتعصب ، وتصفه أحياناً بالرجعية التي تحاول أن توقف مسيرة الثورة الظافرة ، والتي تسعى إلى شد الجزائريين إلى الماضي و التقاليد الرافضة كل تجديد وكل تطور . وهي تقابل بين هذا الأدب الجزائري المكتوب بالعربية و بين الأدب الجزائري الآخر الذي كتب بالفرنسية وموقف كل منهما تجاه حركة التطور فتقول : «وتتميز العملية الأدبية في الجزائر باتجاهين رئيسيين في صراع مستمر : المحافظة التي تتوقف عند حد الاغتراف من كنوز الماضي رافضة كل تجديد وكل انفتاح على ثقافة غربية ما دامت تدين بإيديولوجية لا تتفق والإسلام ، مدعية أنها إنما هي أفكار ومبادىء مستوردة يجب التغاضي عنها . وهذا الاتجاه بالطبع يلتزم جانب الرجعية التي تحاول أن توقف مسيرة الثورة الظافرة ، يناقض هذا الاتجاه اتجاه آخر يستمد قوته من وقوفه إلى جانب الشعب ، ويستمد خصائصه من الواقعية والتقدمية الغنية بخبرات وتجارب شعب منتصر ، وتجارب وخبرات أدب فرنسي تقدمي يقيم معه علاقات خصبة ، بل وغنية بخبرات شعوب تبني الاشتراكية ، وتدعو إلى السلم . إنه اتجاه يستمد طاقاته من كل ذلك ليخلق أدباً يستجيب لمتطلبات الثورة الجزائرية ولمتطلبات شعب يحاول أن يبني حياته الجديدة بعد النصر»[٥] .

والذى يطالع هذه الفقرة يتبين له جلياً ما وقعت فيه الدكتورة سعاد خضر من الخطإ في نظرتها إلى الأدب الجزائري المكتوب بالعربية . فهي أولاً ترميه بالرجعية والمحافظة والدعوة الملحة إلى الاغتراف من كنوز الماضي . كان ذلك فعلاً أثناء البدايات الأولى للنهضة الأدبية الجزائرية الحديثة ، وهو شأن كل نهضة تخوضها أمة من الأمم ، فهي بحاجة أولاً وقبل كل

شيء إلى إحياء تراثها و الالتفات إلى ماضيها ، والبحث في غبار التاريخ عن أخص مقوماتها الحضارية وأخص خصائصها القومية لتقيم عليها أسس نهضتها الحديثة ، وتنطلق بالاعتماد على هذه الأسس الركيزة المتينة نحو آفاق التطور والرقي . وذلك الأمر نفسه هو ما كانت النهضة العربية الحديثة قد مرت به . وطبيعي ما نراه في مثل هذه الحركة من دعوات إلى الماضي وتحريض على الالتفات إلى التراث والتشبث به ، وطبيعي كذلك ما نسمعه من فم هذا الزعيم أو ذلك من زعماء النهضة من دعوات ملحة إلى الأمجاد العريقة والمقومات الأصيلة للشخصية العربية .

إلا أن هذه الدعوة لم تكن كلها متجهة إلى الماضي ولم تنصب كلية نحو التراث تنادي إلى التمسك به دون الالتفات إلى منابع الحضارة وموارد التطور والمدنية . فالأدب الجزائري الحديث المكتوب بالعربية لم يكن أبداً وفي أي وقت من أوقاته أدباً رجعياً ولا رافضاً للتجديد والتحول والتطور . وإلا فكيف نفسر ما نراه لدى شعراء الجزائر المحدثين من دعوات إلى الإصلاح والتعليم والتثقف والتجرد من قيود الماضي والتقاليد البالية ؟ وكيف نبرر موقف شاعر كخبشاش من السفور ؟ وإلى أي اتجاه نعزو دعواتهم إلى الاستفادة من مظاهر المدنية الغربية ومزاياها— هذا من حيث المضامين الشعرية . أما من حيث الأشكال ، فكيف نفسر مواقف رمضان حمود من الوزن والقافية ؟ أليست سمة من سمات التجديد والتطوير والخروج عن التقليد العقيم ؟ ثم كيف نفسر تجارب سعد الله وغيره من الشعراء الجزائريين المحدثين والمعاصرين في الشعر الحر ؟ أليست كلها دليلاً على أن الأدب الجزائري المكتوب بالعربية لم يكن أبداً أدباً رجعياً رافضاً لأي مظهر من مظاهر التجديد والتطوير ؟

يقول الدكتور سعد الله في تجربة له قيمة في الشعر الحر بعنوان «طريقي» قام بها سنة ١٩٥٥م :

سوف تدرى راهبات واد عبقر
كيف عانقت شعاع المجد أحمر
وسكبت الخمر بين العالمين

خمر حب وانطلاق وحنين
ومسحت أعين الفجر الوضية
وشدوت لنسور الوطنية
إن هذا هو ديني
فاتبعوني أو دعوني
في مروقي
فقد اخترت طريقي
يارفيقي[٦]

ألا تراها تجمع إلى طرافة المضمون وتقدّميته ، تلك الثورة على الشكل الشعري الصارم وذلك الخروج عن قواعد النظم العربي العتيق ؟

ثم إن الدكتورة سعاد خضر ، تبني على رأيها هذا في الأدب الجزائري المكتوب بالعربية رأياً آخر لا يقل عن الأول خطورة وإجحافاً ، كما لا يقل عنه خطأً . فهي تتحدّث عنه ، أي عن الأدب الجزائري المكتوب بالعربية ، كأدب منفصل تماماً عن الثورة الجزائرية والنهضة الوطنية بالجزائر ، أدب لم يكن له في الحركة التحريرية باع ولا ذراع ، أدب كان منفصلاً عن الشعب تماماً بعيداً عنه ، متغاضياً عن خبراته الغنية وتجاربه الجمّة الوافرة . يظهر هذا خصوصاً في مقابلتها بين هذا الجانب العربي من الأدب الجزائري الحديث وبين الجانب الآخر منه الذي كتب بالفرنسية . فهي تَسِمُ هذا الأخير في الفقرة التي أوردتها سابقاً[٧] بأنه أدب يستمدّ قوّته ودعائمه من وقوفه إلى جانب الشعب ، ويستقي مقوماته من تأثراته المختلفة بالأدب الفرنسي الواقعي ، وتجاربه التقدمية المتطلعة نحو التطوّر والرقيّ ، بل ومن تأثراته بالمبادىء الاشتراكية والدعوات إلى السلم والأمن والاستقرار . وكلّ ذلك خوّل له أن يعبر عن تطلعات الجزائريين ومتطلبات ثورتهم وآمالهم وآلامهم ، وأن يكون سلاحاً من أسلحة الثورة الفعالة . وواضح ما في هذا الموقف من بخس لفضل الأدب الجزائري المكتوب بالعربية هو الآخر على الثورة ، وإنكار لدوره الهام الذي قام به خلال الحركة التحريرية الجزائرية . وتكفينا التفاتة إلى التاريخ غير بعيدة لتبرهن لنا على أن هذه الحركة قد اندلعت بصفة جدّية وخطى ثابتة رصينة ولسانها

الشعراء والأدباء والخطباء والمصلحون والساسة ورجال الدين الجزائريّون الذين اتخذوا من العربية أداة لهم في التعبير عن أهداف الثورة ، وتطلعات الشعب ومطالبه ، وتصوير ظروفه الأليمة ، وأوضاعه البائسة في ظل الاستعمار الغاشم . لم يكن الأدب الجزائري المكتوب بالعربية أبداً منفصلاً عن الثورة والشعب ، بل كان أدباً واقعياً بأتم معنى الكلمة . لقد بدأ الشعر الجزائري العربي الحديث شعراً منبريًا خطابيًا أساسه الوعظ والإرشاد ، وأصباغه دينية محضة ، تكثر فيها الدعوة إلى اليقظة والالتفات إلى الدين والرجوع إلى سيرة السلف الصالح والنهج على طريقهم . وكان هذا الشعر لسان حال الحركة الإصلاحية ينادي بمبادئها ويدعو إلى تحقيق أهدافها و مساعيها . ولقد سمّى الدكتور سعد الله هذا النوع الأول الذي اتّسم به الشعر الجزائري بين نهاية القرن الماضي إلى غضون سنة ١٩٢٥م «شعر المنابر» وعنه يقول : «إن أساسه الوعظ والإرشاد وأصباغه دينية يكثر فيها لفظ الإسلام والإصلاح والسلف وما شاكلها . كما أن أهدافه إصلاحية ترمي إلى إنماء الوعي الشعبي عن طريق الدين والمبادىء الخلقية . وقد سبقت الإشارة إلى أن الشعر الجزائري عامة كان ينتسب إلى الحركة الإصلاحية ولذلك فقد كان على شعر المنابر أن يوضح أغراض هذه الحركة ويصوغها في أثواب دينية تستميل الشعب و تبعث فيه الحماسة واليقظة كما تفعل الكلمات المنبرية البحتة»(٨) . وذلك يقوم بحق دليلاً على أن هذا الشعر لم يكن منفصلاً عن الشعب ، بل كان بالعكس يحسّ إحساساً عميقاً بالأزمة التي كان يتخبط فيها هذا الشعب من جهل واستكانة وعبودية للأفكار الزائفة والخرافات الواهية والتقاليد الجامدة ، فحاول أن يوقظه من غفلته هذه علّه يفتح عينيه ليرى ما هو عليه من تأخر وركود .

وإذا تقدمنا قليلاً إلى الشعر الجزائري فيما بين ١٩٢٥م و١٩٣٦م والذي سمّاه الدكتور سعد الله «شعر الأجراس» نجد هذه الحقيقة نفسها تتأكد أكثر فأكثر فالشعب في هذه الفترة قد بدأت روح الحياة تعاوده بعد طول سبات ، ونفسيته بدأت تحركها دعوات الحركة الإصلاحية المتمثلة في حركة جمعية العلماء الفتية ، وفي دعوات الحزبين الإشتراكي والشيوعي ، وفي منشورات الصحف والمجلات العربية اللسان ، من أمثال البصائر والشباب والشهاب والمنتقد وغيرها . وأصبحت تحس في شعر هذه الفترة إحساساً قوياً بذلك التيار الحيوي الحاد الذي أصبح يتدفق في روح الشعب إلى جانب روح القلق والاضطراب ، وبعض ملامح التشاؤم واليأس التي

كانت تعْتوِره من حين لآخر . وللشاعر محمد العيد أبيات أوردها له الدكتور سعد الله في كتابه المذكور تصور بحق هذا الواقع الذي كان يعيشه شعب جزائري يتقاذفه الأمل العريض والحيرة القاتلة فيوقعانه في اضطراب شديد مقيت . يقول :

أيّها الشعب فيم توسع قهراً — ليت شعري لأي أمر تقاد؟
ليت شعري متى تصير عتيداً — و لأهليك بالنفوس اعتداد؟
ليت شعري متى تمد لك الأيدي — و تغرى بحبك الأكباد؟
إن خير البلاد في وسع أهليها — إذا أبدأوا بها و أعادوا(٩)

ونفس الشاعر يقول من قصيدة له بعنوان «أسطر الكون» نظمها سنة ١٩٢٥ أبياتاً تصوّر لنا مرة أخرى حقيقة الواقع الجزائري الأليم الذي تتجاذبه الآمال إليها تارة والحيرة واليأس الشديد إليها تارة أخرى . يقول :

وأقرأ من آي الشقاوة أسطراً — على صفحات الكون مرتسمات
فسطر عبابيل أمضهم الطوى — عراة على لفح الأثير حفاة
وسطر أيامى يصطرخن توجعاً — من البؤس لا يفتأن مكتئبات
وسطر يتامى مرهقين تكبهم — على جرف البلوى يد العثرات
وسطر مشائيم غرار أذلّة — يسامون بالأرزاء والنكبات
وفوقهم سطر من الخلق كله — جناة لعمر الحق فوق جناة
فهل كان هذا الكون سيفا مشطبا — يمثل بالأرواح والمهجات
سئمت وان كنت ابن عشرين حجة — حوادث لا تنفك مستعرات
أردد طرفي سابرا كنه غورها — فيرجع طرفي خاسيء النظرات
تبارك رب العرش لست بملحد — يحاول طمس الحق بالشبهات
ولكن وجداني ينم بحسرة — إلى القلب أو يوحي له بشكاة(١٠)

ألا ترى في هذه الأبيات مسحة من السوداوية القاتمة واليأس العميق تطبق على روح الشاعر

فتزيد في حيرته وتجعل مسلكه إلى الخروج منها مسلكاً وعراً مستحيلاً ؟ إن يأسه هذا هو يأس كل الجزائريين في عصره ، وقلقه قلقهم كلهم ، وحيرته حيرتهم جميعاً ، وهو في ذلك خير مصور لحياة الجزائر ، وأوضح صدى لمرارتها و تخبطها بين الأمل المنير واليأس المظلم الأسود .

وإذا ما طوينا هذه الصفحة من صفحات الشعر الجزائري إلى صفحة أخرى تليه وجدناه أكثر استجابة لمتطلبات الثورة الجزائرية والشعب الجزائري ، على خلاف ما تراه الدكتورة سعاد خضر ، ورأيناه ينادي بشعارات الوحدة الشعبية والوطنية وبنود التحرر من قيود الماضي للتفتح على الحاضر والمستقبل ومجابهة المستعمر الغاشم ، مصوراً مرحلة جديدة من مراحل الثورة الجزائرية ، مرحلة بدأت الجزائر تخوض فيها معركة حاسمة نحو التحرر والانطلاق من قيود العبودية والهوان . حتى إذا اندلعت الثورة رسمياً ، حرّكت قرائح الشعراء والخطباء الجزائريين وأطلقت لجماح أقلامهم العنان «فتفجرت عواطف الشعراء بشعر ثوري عارم يسجل انتصارات الثورة ويبشر بالاستقلال والغد الحرّ ، ويتغنى بالوطن والحرية ، ويشارك المحزونين والمتألمين ويضمد الجراح ويكفكف الدموع ويخلد الشهداء والأبطال والوقائع»[11] .

من هذا العرض الموجز لمختلف مراحل الشعر الجزائري الحديث المكتوب بالعربية ، يتبين أن هذا الشعر بصفة خاصة وإلى جانبه أيضاً الخطب والقصص القصيرة والمسرحيات وغيرها من إنتاج الأدب الجزائري العربي الحديث ، كان دائماً صدى لحياة الجزائريين في شتى مراحل الثورة منذ مطلعها حتى الاستقلال . كما يتبين أن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية لم يكن وحده كما زعمت الدكتورة سعاد خضر يستمد مقوماته وخصائصه من واقع الشعب وحياته ليستجيب لمطالبه ويكون صدى له في كل أحواله ، ولم يكن هو وحده الذي واكب الثورة وعزّز جانبها وساهم في تسديد خطاها وتحقيق مساعيها . كلا ، بل إن الأدب الجزائري المكتوب بالعربية سار إلى جانبه في هذه المهمة وقام معه بها خير قيام . وليس الغرض هنا الاقلال من فضل الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية على الثورة الجزائرية كما فعل الدكتور عبد الملك مرتاض في كتابه «نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر» حين قال : «ولو أردت أن أقول ما أعتقد لقررت بأن هذا الأدب ــ يعني الأدب الجزائري المكتوب الفرنسية ــ غريب في نفسه ومنفي من وطنه الذي كتب فيه ، ولم يستطع أن يلعب دوراً كبيراً في نهضة الأدب المعاصر

بالجزائر ، فضلاً عن أن يلعب دوراً كبيراً في إذكاء نار الثورة التي قيظت للشعب الجزائري أن يكسر قيود الاستعمار الثقيلة . وقد قررنا . . . بأن حرمان معظم الجزائريين من التعليم الرسمي الفرنسي ، أدى إلى نتيجة عكسية خطيرة بالقياس إلى وجود الفرنسيين في الجزائر . وإنما يدلّ هذا على أنّ الجزائريين الذين لم يتعلّموا الفرنسيّة ، أو تعلّموها إلى جانب تعلمهم العربية ظلّوا ينظرون إلى هذه اللغة الاستعمارية نظرة حذرة فيها كثير من الخوف والإشفاق فكان ذلك ممّا باعد الشقة بين الجانبين ، وعسر التفاهم بين الفرنسيّين كمستعمرين وبين الجزائريّين ، كمواطنين وطنيّين[١٢] .

وواضح من هذا الرأي أن صاحبه يريد أن ينفي تماماً دور الكتاب الجزائريين بالفرنسبة في نهضة الأدب المعاصر بالجزائر وفي إذكاء نار الثورة . بل هو يذهب إلى أبعد من هذا تماماً ، فيجعل جهلهم بالعربية عاملاً من العوامل التي تحول بينهم وبين القيام بهذا الدور الدعائي المعاصر للثورة الجزائرية والمساعد على نهضة الأدب بالجزائر فيقول : «وقد ظلّ هؤلاء الكتاب الجزائريّون ، في معظمهم ، بالفرنسية ، معجبين كل الإعجاب بالحضارة الفرنسية بوجه خاص ، والحضارة الغربية بوجه عام ، جاهلين بالتاريخ العربي ، غير ملمين بمعالم الحضارة الإسلامية . إذ أنى لهم أن يدركوا شيئاً من ذلك وهم محرومون من الإلمام الكافي بلغتهم التي بواسطتها يطلعون على التراث العربي وكنوز حضارته الغنية بمعطياتها الإنسانية اطلاعاً حقيقياً خالياً من كل الشوائب والشرور؟

فقد كانت هذه الحضارة العربية ومعطياتها ، بالقياس إلى كتابنا بالفرنسية ، في بيت مغلق وهم لا يملكون مفتاحه ، ولم يكن لهم سبيل ليملكوه . لسنا نتهمهم بغير هذا فلم تكن تنقصهم الوطنية ، ولم يكن ينقصهم الشعور بالمسؤولية كما يقال ، وإنما كان ينقصهم شيء واحد فقط ، ولكنه عظيم الأهمية وهو الإلمام بالعربية التي كان شعبهم يتحدّثها ، فحرموا كل شيء»[١٣] .

ويبدو الدكتور عبد الملك مرتاض قاسياً في حكمه على الأدب الجزائري بالفرنسية كما كانت الدكتورة سعاد خضر قاسية في حكمها على الأدب الجزائري بالعربية . فهذا الأدب المكتوب

بالفرنسية ، وإن لم يكن له صدى مباشر في إذكاء نار الثورة الجزائرية لجهل أغلبية الجزائريين ، حسب رأيه ، بالفرنسية ، فإن هذا الأدب لا محالة قد صوّر الواقع الجزائري الأليم وعكس للجميع حياة الجزائريين أيام ثورتهم وبيّن للعيان شرعية هذه الحركة وعدلها ، فساهم بذلك في الدعاية إلى القضية الجزائرية في الخارج وفي جلب المؤيدين لها . وعلى كل فكلاهما أدى لهذه القضية خدمة جليلة ، وكلاهما واكبها في مختلف مراحلها وساهم في الدعاية لها وتسديد خطاها متخذاً من الواقع الجزائري منبعاً لمقوماته وخصائصه يلقي عليه الأضواء المنيرة فيكشفه كل بطريقته إلى القارىء العربي ، والغربي على حد سواء .

أعــود الآن إلى مناقشة بقية آراء الدكتورة سعاد خضر حول الأدب الجزائري المكتوب بالعربية . فهي ترى أن الفرنسية قد تعمقت جذورها في الجزائر في عهد الاحتلال حتى أنه تحتم عليها «أن تلعب نفس الدور الذي كان على العربية أن تقوم به وأصبحت لغة التعبير في ميدان التعليم ، وهي لغة الثقافة والسياسة والتاريخ والأدب إلى جانب كونها لغة طيّعة ناجعة لميدان الأدب»(١٤) . ولنا أن نسألها هنا : هل كان ابن باديس يسوق خطبه السياسية والوطنية القيمة بالفرنسية ؟ وهل كان الشيخ الإبراهيمي ينشر «البصائر» بالفرنسية ؟ وهل كانت الشهاب والمنتقد والمؤيد والشباب وغيرها من الصحف والمجلات تصدر بالفرنسية أم بالعربية ؟ وهل كان زعماء جمعية العلماء يتنقلون في أنحاء الجزائر ويخاطبون الأهالي بالفرنسية ؟ وكيف لهم ذلك وأغلبية الجزائريين يجهلون الفرنسية ، اللهم إلا بعض كبار المدن كوهران وبلعباس والجزائر العاصمة مثلاً ؟

يقول الدكتور عبد الملك مرتاض : «إن الثقافة الفرنسية لم تتمكن تمكناً عميقاً إلا من نسبة من الجزائريين الذين أتيح لهم أن يدرسوا في المدارس الفرنسية على نحو واسع ، مما جعل عامة الشعب الجزائري يظل جاهلاً بالأدب الفرنسي والفكر الفرنسي في عمقه وأصالته»(١٥) .

ويستنتج الدكتور من رأيه هذا رأياً آخر فيه كثير من الصحة مع كونه يستند قليلاً إلى الهوى ويعول على العاطفة ، فيقول : «وإذن فأصالة الشعب الجزائري وحنينه إلى عروبته وإهمال الإنسان الجزائري في البادية إهمالاً كلياً وإغلاق أبواب المعرفة في وجهه ، كل هذه العوامل

تجعل الباحث يقرر بحق بأن الجزائر كانت مستقلة من الناحية الاجتماعية ، عن الاستعمار الفرنسي استقلالاً يكاد يكون تاماً . . . وأن البادية والقرى الجزائرية لم تفد من وجود الاستعمار الفرنسي الذي كان طويل العمر في هذه الأرض ، لا اقتصادياً ولا حضارياً ولا ثقافياً ولا اجتماعياً ولا لغوياً ، بل ظل المجتمع الجزائري ، في البوادي والقرى النائية ، على ما كان عليه قبل الاحتلال الفرنسي : لم يتقدم ولم يتأخر ، ولم يتبدل ولم يتغير»[١٦] . وعلى هذا النحو ، أمكن للعربية ، ولجماعة العلماء الجزائريين وعلى رأسهم ابن باديس والإبراهيمي ، وكذلك للصحف والمجلات والمنشورات الجزائرية العربية ، وأمكن لهؤلاء جميعاً أن يجدوا لأنفسهم طريقاً بين جماهير الشعب الجزائري ، وآذاناً صاغية وقلوباً واعية تستجيب لدعواتهم وصرخاتهم ، وأمكن للثقافة العربية أن تحتل مكانها في الثورة الجزائرية وتقوم بدورها تجاهها كاملاً كما أمكن للعربية أن تبقى لسان الدعوة والتثقيف والتعليم وإنارة العقول . وما المدارس العربية الحديثة التي أنشأتها جمعية العلماء إلا دليل قاطع على أن العربية قد ظلّت ـ بالرغم من وجود الفرنسية والفرنسيين ـ سلاحاً من أسلحة الثورة في شتى مظاهرها وأهدافها. وهذا خلافاً لما رأته الدكتورة سعاد خضر في رأيها عن الأدب العربي واللغة العربية بالجزائر.

وهي تضيف إلى هذا الرأي الخاطىء رأياً آخر لا يقل عنه خطأ حين تقول : «فاللغة العربية الكلاسيكية مقتصرة على ميادين خاصة من ميادين الثقافة وأغلبها دينية إلى جانب المنشورات السياسية وأشعار المقاومة . ولم تستطع نظراً للظروف التي فرضتها فرنسا و شلّت تطوّرها ، لم تستطع أن تعبر عن أنواع أدبية جديدة أو أن تتخطى هذه الحدود التي فرضت عليها»[١٧] . والذي يمحص النظر في الجانب الأول من رأيها هذا ، يرى أنها تعتبر أن ميادين الثقافة والأدب تغاير السياسة والخطب الإصلاحية وأشعار المقاومة ، وأن هذا الضرب من الإنتاج وما ينحو نحوه مما يدخل في أسلحة الثورة الدعائية ، ينافي الأدب ويخالفه . وكأنما الأدب مقصور على التعبير عن الوجدان والمشاعر والعواطف الذاتية لهذا الأديب أو ذلك . في حين أن الأدب يشمل كل هذه الميادين وكل هذه الأصناف من الإنتاج إذا صيغت في قالب فني معبر يستوفي شروط الخلق المبدع وقواعد الفن الأصيل . والذي يفكر في هذا الرأي وما يمكن أن يقوم عليه من استنتاجات خطيرة ، يفهم منه بلا شك أن أشعار حافظ ابراهيم الإصلاحية ، ومؤلفات محمد عبده والأفغاني من قبله في الدعوة الإصلاحية أيضاً ، وخطب علي بن أبي طالب ، بل

وحتى أحاديث الرسول والقرآن الكريم نفسه يجب أن نخرجها عن الأدب العربي ولا نعدها من الإنتاج الأدبي . إذن لكان ذلك خسارة علينا وعلى أدبنا أي خسارة . ويصدر الدكتور مرتاض عن هذا الرأي ذاته حين يقول : «إن العنصر السياسي أو الديني أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو الإصلاحي ، إذا سيطر على حركة أدبية ، ليس معناه أن هذا الأدب دين أو سياسة أو نحوهما ولكن معناه أنه أدب حي ملتزم يهتم بالفرد من حيث ماهو مضطرب في مختلف مناكب الحياة .

وكأن هؤلاء يأبون أن يطلقوا لفظ الأدب إلا على كل أدب عاطفي أو كل أدب يعنى بالذاتية الشخصية كالأدب الرمزي المريض»(١٨) . وأما الجانب الثاني من رأيها الأخير ، والذي تزعم فيه أن اللغة العربية لم تتمكن من التعبير عن أنواع أدبية جديدة أو أن تتخطى الحدود التي فرضت عليها من قبل الإستعمار والفرنسية فرضاً ، ولا أن تسير خطوة نحو التطور والتجديد ، فذلك أيضاً رأي فيه نظر . فاللغة العربية ، إلى جانب كونها لغة شعر جزائري تقليدي اتسم في مختلف مراحل تطوره بروح الثورة والنغمة الخطابية الإصلاحية ، قد اتخذت كذلك أداة للتأليف في الرواية والقصة القصيرة والمسرح ، وكلها أنواع أدبية حديثة لم تدخل الأدب العربي الحديث بصورة مكتملة واضحة إلا في مطلع هذا القرن ، ودخلت الأدب الجزائري الحديث وانضمت إلى جانب الخطابة والاشعار لتكون سلاحاً من أسلحة المقاومة ، تعتمد على الواقع الحالي كما تعتمد على التاريخ لتستقي منهما موضوعاتها وأحداثها . وما رواية رضا حوحو «غادة أم القرى» (١٩٤٧) إلا دليل على ماقدمت . كما أن تجارب محمد العابد الجيلالي في القصة القصيرة(١٩) وأقاصيص حوحو العديدة ، ومسرحية محمد العيد الشعرية «بلال» ومسرحية توفيق المدني «حنبعل» ، وغيرها إنما تقوم دليلاً على أن اللغة العربية الكلاسيكية ، على حدّ قول الدكتورة سعاد خضر ، لم تقتصر على الجانب الديني وبعض الخطب وأشعار المقاومة فحسب بل تعدت كل ذلك إلى ميدان التجديد والتطوير ، وتبنت أنواعاً أدبية حديثة . صحيح أن هذه الأعمال التي لدينا من الأدب العربي الجزائري في الرواية والقصة والمسرح محاولات لم تكتمل كل عناصر هذه الفنون ولم تتوفر فيها كل المقومات الفنية المشترطة في هذه الأنواع الأدبية ، وصحيح أن هذه المحاولات لم تبلغ أوج الكمال والإبداع الفني الراقي ، ولا هي وصلت إلى المستوى الفني والعالمي الذي بلغته أعمال الأدباء الجزائريين الذين يكتبون

بالفرنسية . كل ذلك صحيح ولا يمكن إنكاره . إلا أن هذا لايمنع كون اللغة العربية كانت أداة لتجارب أدبية جديدة مهما قيل عنها فإنها قد نجحت إلى حدّ كبير في تصوير الواقع الجزائري والاستجابة لأهداف الجزائر الثائرة والمكافحة .

ولم تقف العربية عند هذا الحد في محاولاتها التجديدية ، بل كانت منذ العشرينات من هذا القرن أداة للدعوة إلى الخروج من قيود القديم والتحرّر من أغلال العمود الشعري التقليدي ، وترك الصور المجوجة المتكلفة التي طال اجترارها ، وآن لها أن تختفي وتعوض بأكثر منها ملاءمة لروح العصر . يقول الشاعر رمضان حمود داعياً إلى الثورة على الوزن والقافية :

ألا جـدّدوا عصراً منيراً لشعـركم ... فسلسلة التقليـد حـطمهـا العصر
وسـيروا بـه نحـو الكمال وَرمّـوا ... معـالمهُ حتى يصـافحـه البـدر[٢٠]

ويقول أيضاً في الدعوة إلى الخروج على القالب التقليدي المنبوذ متهكماً على من ينحو هذا النحو في شعره :

أتـوا بكـلام لا يحـرك سـامعـاً ... عجوز له شطر وشطر هو الصدر
وقـد حشروا أجـزاءه تحت خيمـة ... كعـظم رميم نـاخـر ضمّه القبـر
وزين بـالـوزن الـذي صار مقتفى ... بقـافيـة لـلشط يقـذفهـا البحـر
وقالوا : وضعنا الشعر للناس هادياً ... ومـا هـو شـعـر لا ولا نـثر
ولـكـنـه نـظم وقـول مـبـعـثر ... وكذب و تمويه يموت به الفكر[٢١]

ولرمضان حمود زيادة على هذه الأشعار الداعية إلى التجديد أفكار وآراء في الشعر والوزن والقافية تكشف لنا عن شعوره الدقيق وإحساسه العميق بحقيقة الشعر ودوره والمراد منه ، وبوظيفة هذه العناصر في تجميله وتحسينه وتقريبه إلى الذوق ، يقول : «الشعر تيار كهربائي مركزه الروح ، وخيال لطيف تقذفه النفس ، لا دخل للوزن ولا للقافية في ماهيته . وغاية أمرهما أنهما تحسينات بديعيّة لفظية اقتضاها الذوق والجمال والتركيب في المعنى ، كالماء لا يزيده الإناء الجميل عذوبة وملوحة ، وإنما حفظاً وصيانة من التلاشي والسيلان»[٢٢] . ولم يقف به

التجديد عند هذه الحدود النظرية البحتة ، بل تعدّاها إلى الجانب العملي ، فجدّد في شعره وأوزانه وقوافيه ، ونجح في تجربته هذه إلى حدّ كبير . ثمّ إن التجديد في الشعر العربي الجزائري لم يقف عند رمضان حمود ، بل تعدّاه إلى غيره من الشعراء الجزائريين وظلّت محاولات التجديد في الشعر العربي ممتدة إلى يومنا هذا في الجزائر . والأدب الجزائري العربي ، وإن كان حذراً في تبنّيه لهذا المذهب أو ذلك من المذاهب الأدبية الحديثة ، واتباعه لهذا الاتجاه أو ذلك من الاتجاهات الفنية المعاصرة ، إلا أنه قدم لنا تجارب في مجال التجديد والتطوير تسمح لنا بملاحظة التطوّرات والتحوّلات التي يعيشها في أجلى مظاهرها وأبرزها . ولعل تجربة الدكتور سعدالله في الشعر الحرّ وكذلك محاولات الشعراء الجزائريين الشباب في يومنا هذا تقف في طليعة هذه المحاولات التجديدية وتبرهن على أنها نجحت إلى حد كبير .

من هذا العرض يتبيّن لنا أن الأدب الجزائري المكتوب بالعربية قد اتسع مجاله فشمل الأنواع الأدبية الحديثة ، وأن العربية لم تقتصر ، حسب مارأته الدكتورة خضر ، على الجوانب الدينية والإصلاحية وأشعار المقاومة ، بل كانت كذلك أداة لكثير من المحاولات التجديدية سواء في الشعر أو في المسرح أو في الرواية ، وهي محاولات ناجحة إلى حدّ كبير ، وإن كانت لم تستوف جميعها كل مقوّمات هذه الفنون ولم تستكمل مجمل خصائص الحداثة والتجديد .

تلك هي بعض الخواطر أثارها في نفسي موقف الدكتورة سعاد خضر من الأدب الجزائري المكتوب بالعربية . وهو موقف نموذجي نجده لدى جل الباحثين المشارقة ، إن لم أقل كلهم ، تجاه هذا الأدب . و هو موقف أملته عليهم إمّا نظرة عاجلة سريعة على ما ينشر أو يكتب في المجلات والصحف والجرائد والكتب العربيّة في أغلبها والجزائرية في أقلها ــ كما هو الحال مع الدكتورة سعاد خضر[٢٣] ــ وإمّا أملتها عليهم زيارة خاطفة إلى مكتبة الجزائر وتصفّح سريع لما فيها من كتب ودواوين جزائرية ، كما هو الحال بالدكتور لويس عوض أثناء زيارته للجزائر إثر دعوته إليها بمناسبة ذكرى الاستقلال . فقد أقام بالجزائر أسبوعاً كما يقول في كتابه ــ «دراسات عربية وغربية» ــ وحاول الالتقاء بأعلام الأدب فيها ، ولما لم يتمكن من مقابلتهم مباشرة والتحدّث إليهم حول قضيّة الأدب في بلادهم ، أراد أن يتصل بهم من خلال كتبهم ودواوينهم . يقول في ذلك : «. . . قلت حسناً ، إن كنت لم أوفّق في لقاء أدباء الجزائر

بأشخاصهم ، فلا أقل من أن ألتقي بهم في مؤلفات هؤلاء الكتاب . عشرين قصّة من قصصهم ومسرحية من مسرحياتهم وديواناً من دواوينهم كلها بالفرنسية ، وليس فيها كلمة واحدة خطت بالعربيّة . . . فالجزائر قد أنجب جيلاً من كبار الأدباء الذين لا ينشئون إلا بالفرنسية ، ومنهم من لا يقرأ العربية ، بل منهم من لا يعرف كيف يتكلمها بتاتاً مثل مالك الحدّاد وحتى من كان منهم يقرأها ويكتبها ، مثل مصطفى الأشرف ، تجده لا يعبّر عن نفسه أدبيّا إلا بالفرنسيّة»[٢٤] .

ويمضي متسائلاً : «كيف ومتى يتاح للجزائر العربية أن تعبر عن نفسها أدبيّا وفنياً باللغة العربية ؟ وكيف ومتى يكون للأدب العربي نصيب في أدباء الجزائر ؟ وكيف ومتى يبلغ أدباء الجزائر هذه المرتبة العالميّة التي بلغوها من خلال لغتهم العربية لا من خلال لسان أجنبيّ ؟»[٢٥] . ويتساءل على هذا النحو وكأنه لم يكن للجزائر أدب عربيّ ، وكأن التراث الأدبي الجزائري مقتصر على الكتب والقصص والدواوين العشرين التي سمحت له زيارته الخاطفة لمكتبة الجزائر أن يتصفّحها ويستنتج منها مثل هذه الأحكام . وهكذا ، وعلى هذا النحو ، يمضي اخواننا المشارقة من أدباء كبار ونقاد لامعين يحكمون على أدب الجزائر خاصة وأدب المغرب العربي عامة بمثل هذه القساوة وهذا التسرّع ، فيقعون بالضبط في ما وقع فيه الدكتور لويس عوض والدكتورة سعاد محمد خضر وغيرهما . وعلى كلّ ، فالحقيقة التي يجب أن تقال ويجاهر بها ، هي أن مسؤوليّة هذا الاجحاف تقع على الجزائريين والأدباء الجزائريين أنفسهم ، كما تقع علينا نحن المغاربة جميعاً . فقد أخللنا إلى حدّ كبير بواجبنا نحو أدبنا العربي ولم نتح له فرص الشهرة والانتشار ، كما لم نمكنه من التعريف بنفسه في شتّى أنحاء العالم العربي . فمن الطبيعي إذن أن نتحمل تبعة ذلك ، ومن الطبيعي أن ترسخ في ذهن الأدباء والنقّاد العرب مثل هذه الأحكام التي رأينا ، ومازلنا نرى إن لم نتلاف ذلك ، حول أدبنا العربي . فهم لم يطّلعوا من كل أدبنا إلا على ما نشر من قصص كتابنا بالفرنسية ورواياتهم وأشعارهم ، وما كتب عنها من طرف الأدباء الأجانب ، ولا يمكننا بأي حال من الأحوال أن ندّعي لأنفسنا الفضل في نشرها أو توزيعها أو التعريف بها . بينما ظلّت أعمال أدبائنا وكتابنا بالعربية مغمورة في جلها متفرقة بين مكتباتنا ، ولم تجد لنفسها سبيلاً للخروج إلى النور والبروز إلى الشهرة والانتشار . لقد آن لنا ، نحن المغاربة ، أن نعرّف بأدبنا وإنتاجنا ،

ونبرهن على أنه جزء لا يتجزّأ من الأدب العربي ، وأن مساهمته في إحياء هذا الأدب وإغناء هذا التراث المجيد مساهمة لا يمكن التغاضي عنها أو الغضّ من قدرها . عندئذ فقط ، يمكن لهذه الآراء التي نراها أن تندثر وتمحي ولا يبقى لها مبرّر للوجود .



هوامش :

(١) أنظر : سعاد محمد خضر : الأدب الجزائري المعاصر ـ المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت ١٩٦٧م .
(٢) المرجع السابق ص ٨٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٨٣ .
(٤) المرجع السابق ص ٨٢ .
(٥) المرجع السابق ص ٨٤ .
(٦) من كتابه دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، دار الأداب ـ بيروت ـ ط . الأولى ـ نوفمبر ١٩٦٦ ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .
(٧) أنظر سعاد خضر ، ص ٨٤ .
(٨) د . سعد الله : نفس المرجع ، ص ٣٤ .
(٩) المرجع السابق ص ٣٦ .
(١٠) صالح خرفي : شعراء من الجزائر (الحلقة الأولى) ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ ١٩٦٩م ـ ص ١٦٠ - ١٦١ .
(١١) د . سعد الله : المرجع نفسه ، ص . ٢٤ .
(١٢) د . عبد الملك مرتاض : نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر : ١٩٢٦ ـ ١٩٥٤م الجزائر ـ بدون تاريخ ـ ص . ٢٠ .
(١٣) المرجع السابق . نفس الصفحة .
(١٤) د . سعاد خضر : المرجع نفسه ، ص ٨٦ .
(١٥) عبد الملك مرتاض : المرجع نفسه ص.ص ٢٢ ـ ٢٣ .
(١٦) عبد الملك مرتاض : المرجع نفسه ، ص . ٢٣ .
(١٧) سعاد خضر المرجع نفسه ، ص ٨٧ ـ ٨٨ .
(١٨) عبد الملك مرتاض : نهضة الأدب . المقدمة ص ٧ .
(١٩) ونعود أولاها إلى سنة ١٩٣٥م ، الصائد في الفخ .
(٢٠) شعراء من الجزائر ص . ٨١٢٣
(٢١) شعراء من الجزائر ص . ١٣٢ ـ ١٣٣ .
(٢٢) شعراء من الجزائر ، ص ١٣٣ .
(٢٣) ويكفي الرجوع إلى قائمة المصادر والمراجع التي أعتمدت عليها وأثبتها في أخر كتابها المذكور لتثبت من ذلك .
(٢٤) لويس عوض : دراسات عربية وغربية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥م . ص ٤٨ .
(٢٥) المرجع السابق ص.ص ٤٨ ـ ٤٩ .